اشكالية التواجد الفينيقي في المغرب القديم

محمد الطاهر العدواني

تصدير :

في البداية لا بد من تحديد المقصود من اشكالية التواجد، حيث أننا سنتناول من خلاله ـ تحديدا ـ اشكالية تأريخ التواجد وليس التواجد نفسه فتلك مهمة شاقة فنحن هنا نعالج فقط أساليب أو طرق معالجة التواجد معالجة تاريخية على يد المدرسة الكولونيالية.

لقد درجت الدراسات التاريخية سواء منها القديمة أو الحديثة، على استعمال مصطلح التوسع الفينيقي، عندما تتحدث عن تلك الظاهرة التاريخية التي عرفتها منطقة المتوسط الغربية والشرقية أيضا، وهي ظاهرة يمكن أن نطلق عليها «الفينقة» أو «الفينقة» حسب القراءات، أي على وزن الرومنة المستعملة عندنا.

هذه الظاهرة التي نرصدها تاريخيا بانتشار بعض عناصر التجارة وبعض الملامح الثقافية والحضارية الخليطة، والتي يمكن أن نقول عنها والى حد بعيد أنها ملامح حضارية وثقافية مكوّنة أساسا من مجمل العناصر الثقافية لشعوب البحر الأبيض المتوسط وأنها اذا كانت قد أخذت السمة الثقافية الفينيقية فلأن هذه المجموعة الثقافية الفينيقية ـ ولا أقول المجموعة البشرية الفينيقية ـ هي أحسن من استطاع التعبير عنها أو بمعنى آخر : لقد استطاعت هذه المجموعة الثقافية الفينيقية أن

تكون الخلاصة الوسيطة بين مجمل ثقافات المتوسط [1]. علما بأن هذه الوساطة قد امتدت لتشمل مجمل أوجه النشاط المتوسطي الأخرى. ومن ثمة فقد باتت المجموعة الثقافية الفينيقية تشبه الى حد بعيد مجموعة الثقافة الهلينية في المتوسط ذاته والتي حلت محلها شرقي هذا المتوسط في العصور اللاحقة. في التأريخ لهذه المرحلة وفي معالجة هذه الظاهرة استعملت المدرسة الكولونيالية عدة مصطلحات تحمل كل منها دلالة خاصة، سنتناولها بمفردها: أول هذه المصطلحات كان مصطلح التوسع الفينيقي، وسوف نحاول هنا أن نراجع معا صحة استعمال هذا المصطلح ومصداقية انطباقه علميا على هذه الظاهرة التاريخية الحضارية فنراقب معا ما إذا كان هذا المصطلح «التوسع» قد استعمل وما يزال يستعمل في محله أو في غير محله وفيما اذا كان هناك توسع حقيقي أم غير ذلك.

التوسع والتوسعية :

إن مصطلح التوسع مصطلح يحمل دلالة استعمارية لا شك فيها وهو يعني توسع جسم أو هوية ثقافية اقتصادية سياسية محددة المعالم على حساب جسم أو أجسام أو هوية أو هويات ثقافية اقتصادية سياسية أخرى مختلفة ومغايرة للأولى. وان هذا المصطلح وبهذا المدلول لم يُعرف ولم يُستعمل الا منذ القرن الثالث الميلادي في فترة حكم الامبراطور الروماني كلوديوس [2]. ولكن مصطلح التوسع الاستعماري بالدقة لم يبدأ في الانتشار بالفعل الا ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أما مصطلح التوسعية (Expansionisme) فهو لم يستعمل الا في سنة 1922 م)، أي خلال فترة ما بين الحربين العالميتين الأخيرتين أي في قمة تصعيد الصراع الكولونيالي والامبريالي العالمي.

ومن خلال هذه المعطيات التاريخية يتضح الى أي حد يكون اطلاق مصطلح التوسع على هذه الظاهرة الفينيقية وفي هذه المرحلة التاريخية الموغلة في القدم ـ أواخر الألف الثانية وأوائل الألف الأولى ق.م. أمرا غير مناسب من الناحية العلمية، ومن ثمة فهو استعمال في غير محله.

بالإضافة الى ذلك ـ وكما سبق أن بيّنا ـ فان التوسع ضمنا لا بد وأن يكون

عملية تتم إن سلما أو حربا ولكنها في الحالين تكون لحساب المتوسع على حساب المتوسع عليه ونلاحظ في الحالة الفينيقية أن ليس هناك ثمة شيء من هذا القبيل، لانه ليست هناك ثمة هوية ثقافية سياسية فينيقية توسعت على حساب قومية بربرية في حالتنا نحن هنا ان جازت التسمية، حيث يقابلنا في التاريخ وعلى الساحل الفينيقي مدن مستقلة بحكم ذاتها هي ما عرفت في التاريخ بمدن الدولة. وهي مدن ذات هويات ثقافية وسياسية متمايزة عن بعضها البعض خرج منها تجار بحارة يعكس تمايزهم – ولا شك – تمايز وتباين ثقافات وسياسات مدنهم وكل ما هنالك هو أن هؤلاء البحارة التجار جمعت فيما بينهم – في أحسن الأحوال – المصالح المشتركة. وعلى الساحل الافريقي كما هي الحال على سواحل المتوسط عموما استقبلتهم هويات ثقافية وسياسية متمايزة هي الأخرى عن بعضها البعض فيما بينها، فيما هي متمايزة أيضا في مجموعها معهم، ولكن ربطت بينها وبينهم الرابطة المصلحية المشتركة(3).

في هذه الحال ليس هناك اذن الشروط الاساسية الموضوعية التي تقوم عليها فرضية التوسع لان التوسع المفروض فيه أن يُحدد لحساب من؟ وعلى حساب من؟ وهي الحلقة المفقودة هنا أو الفرضية الغائبة كما يقولون.

اشكالية التواجد الفينيقي:

نأتي هنا الى الشق الثاني من التساؤل أو من الاشكالية المطروحة: هل هناك توسع فينيقي لااستعماري اي ما يمكن أن يكون انتشارا فينيقيا أو بالمعنى الذي طرحناه نحن به تواجد فينيقي؟

تلك هي الإشكالية التي تحتاج الى دراسة وبحث في عمق التاريخ والتي تبدأ من السؤال الأساسي الأول من هم الفينيقيون أولا؟

والسؤال عن الفينيقيين يقودنا حتما الى التعرض لموضوع المصادر التاريخية التي يمكن أن تستقى من خلالها عناصر الإجابة على هذا السؤال من هم الفينيقيون؟

هناك ولا شك ثمة مصادر هامة بالنسبة للدارس والباحث المعاصر، وهي مصا در منها ما لم يستنفذ بعد بالكامل ولا يزال بامكانه أن يقدم الجديد في مجال المعطيات التاريخية وخاصة ما يتمثل في التركة الأثرية للحضارة الفينيقوبونيقية.

ولكن وقبل هذا وذاك لا بد من التعرف أولا على المسرح الجغرافي للمنطقة التي تعاقبت عليها مجريات الأحداث، وسوف نحاول أن ننحو منحى خاصا في التعرف والتعريف بهذه المنطقة (الشرق أوسطية).

مسرح الأحداث شرقي المتوسط بين الجغرافيا والتاريخ:

عادة عندما يتحدث المؤرخون عن فينيقيا والفينيقيين يربطون هذا الشعب بالوطن الذي هو الساحل الفينيقي، ويأخذونه مدخلا جغرافيا لازما للدراسة، غير أننا هنا نريد أن نخرج قليلا عن هذا التقليد، فالساحل الفينيقي لم يعرف قط الاستقلالية عن الرقعة الجغرافية العامة لخريطة الشرق الأدنى القديم، لذلك فأنه من الخطأ فصل هذا الساحل جغرافيا عن محيطه الطبيعي الذي شكّل معه شخصيته الحضارية والتاريخية. فالشرق الأدنى القديم كتلة واحدة من الصعب بل من التجني فصلها عن بعضها البعض كاطار طبيعي احتوى الأحداث.

ولقد كانت بلاد الشرق الأدنى القديم وفي حدودها الممتدة من بلاد النيل الى بلاد الرافدين عبر بلاد الشام محط أنظار الشعوب المجاورة لها من مختلف الأرجاء المحيطة سواء كانت هذه الأرجاء هي جزر البحر المتوسط وسواحله الأوروبية بل وعمق القارة الأوروبية شمالا أم أطراف الصحاري المحاذية لبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وبلاد النيل جنوبا الى القارة السمراء عبر النوبة والسودان وغربا عبر الصحاري الليبية وحتى جبال الأطلس والمحيط غربا. وكان الدافع الرئيسي في شد أنظار مجمل هذه الشعوب الى بلاد الشرق الأدنى التطلع الى ثرواته وخيراته الوفيرة ومدى ما بلغته شعوبه من رقي حضاري وازدهار ثقافي واستقرار سياسي. ولا شك أن شعوب تلك البلاد المجاورة كانت معذورة اذ جذبتها اشراقات الحضارات الكبرى في المنطقة، كما تجذبنا نحن اليوم اشراقاتها بل وتبهرنا أنوارها في عواصم الدنيا الكبرى. لذلك نرى تلك الشعوب والقوميات المجاورة والبعيدة عن مراكز الحضارة في الشرق قد اندفعت وتدافعت لاحتلال مساحات متفاوتة في الضيق والسعة من رقعة الشرق الأدنى القديم.

من هذه الشعوب والقوميات: السومريون الذين جاءوا في الألف الرابعة ق.م

وما زالت مسألة مجيئهم تطرح التساؤلات العديدة ، وعلى رأس هذه التساؤلات من أين جاءوا؟ ولقد جاءت فيما بعد شعوب وقوميات توزعت فيما بين بلاد النهرين والشام وبلاد النيل، جاءت على شكل موجات هجرة وعلى شكل غزو مسلح وهي هجرات مشهورة في التاريخ معروفة لدى الجميع، منها هجرات العموريين والكنعانيين والحثيين والهكسوس، وهجرات الشعوب الليبية من الصحراء الكبرى وبلاد المغرب واستقرارها غربي الدلتا في وادي النيل، وشعوب البحر التي جاءت على موجات يجدر بنا في هذا المقام أن نتوقف عندها قليلا والتي لم تتوقف بها أمواج الهجرات والغزوات على الشرق الأدنى القديم بل استمرت عبر عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

شعوب البحر؟ أم شعوب المتوسط؟

في الربع الأول من القرن الثالث عشر ق.م حدثت هجرات جماعية لبعض الشعوب الشمالية القادمة من البلقان ومن السهول الواقعة شمال البحر الأسود باتجاه شطئان المتوسط. وهي الهجرات التي لا تزال مجهولة الأسباب. ولقد سببت هذه الهجرات الجماعية لهذه الشعوب الهمجية المتبربرة كوارث ونكبات حضارية لا تحصى لمجمل بلاد الجزء الشرقي من المتوسط.

فبعد أن دمر الآخيون في طريقهم مدن بلاد الاغريق نزلت القبائل الدورية المسلحة بالحراب الحديدية الى جزيرة كريت التي كانت قد عرفت ازدهارا ورقيا حضاريا، اقتبست العديد من عناصره ومقوماته من الحضارات الشرقية الآفروعربية (مصر وبلاد الهلال الخصيب ودلتا الرافدين). ولكن بعد أن مرت بها هذه الشعوب الشمالية المتوحشة دمرتها وخربت ما عرف في التاريخ بالحضارة المسينية التي لم تبق منها سوى أطلال قصر كنسوس الشهير. وفرت فلول المنهزمين من شعوب المتوسط شمالا الى الجزر والشطئان المتوسطية جنوبا وخاصة في اتجاه السواحل الجنوبية الغربية للمتوسط، حيث نجدهم وقد شكلوا حلفا عسكريا مع قبائل التمحو والتحنو والليبو وغيرهم من قبائل المغرب القديم وذلك بدءا من السنة الثانية لحكم رمسيس الثاني عام 1297 ق.م. وباتوا يخططون لغزو مصر عسكريا من الغرب. وقد ضم هذا

الحلف المتوسطي الأول الى جانب التحنو والتمحو والليبو والمشواش الذين من المحتمل أن يكونوا هم الأمازيغ فيما بعد، ضم الشكلش الذين يكونون ـ ربما ـ الصقليين والشردن وهي القبائل التي أعطت اسمها الى سردينيا فيما بعد والمكسيس وهم من الاغريق[4].

ومعلوم أن هذا التحالف العسكري الذي دخل الحرب ضد رمسيس الثاني قد مني بهزيمة منكرة على يد فرعون مصر، ولكن ليس ذلك بالأمر الهام، فالمهم هنا هو استشفاف صور وصيغ التعامل والعلاقات التي كانت قائمة بين مجموع هذه الشعوب بعضها البعض شعوب شمال المتوسط وجنوب المتوسط وجزره. اننا نلاحظ هنا أنه كان يوجد بينها ثمة ترابط اجتماعي بشري وثقافي وحضاري بل سياسي وعسكري متوسطي الى حد ما أو تلك كانت النبضات الأولى لما يمكن أن نسميه مجتمعا متوسطيا، والملفت للنظر حقا في هذه الأحداث هو أن السلطة الفرعونية المنتصرة على هذا الحلف العسكري المتوسطي ضدها نجدها لا تتعامل معه كما لو كان حلفا لأعداء قوميين. فبعد ثلاث سنوات فقط من تلك الأحداث كان هؤلاء المهاجمون لمصر جنودا في جيش الفرعون[5] يحاربون الى جانبه في معركة قادش الشهيرة التي انتصر فيها رمسيس الثاني نفسه على جيش الامبراطورية الحثية التي كانت تنازعه السيادة على منطقة الشام وذلك سنة 1294 ق.م. وخصوصا على ما عرف فيما بعد بالساحل الفينيقي. هذا الساحل ضم خمس مدن اشتهرت عبر الثلاثة آلاف سنة السابقة للميلاد وازدهرت بتعاطيها لأعمال التجارة وبأنها عرفت كيف توظف لعبة التوازن بين الامبراطوريات التي تتنازع السيادة على مجالها الحيوي . وهو الأمر الذي لم يسمح لها قط بالظهور على مسرح الأحداث الدولية كقوة قائمة بذاتها. وقد اشتهر من هذه المدن بطبيعة الحال جبيل وأوغاريت وصور وصيدا على وجه الخصوص.

غير أن هجمات شعوب البحر المتوسط التي توالت بعد معركة قادش. هذه المعركة التي وان هي أنهت الى الأبد السيطرة الحيثية على المنطقة. فهي مع ذلك لم تمنح السيادة المطلقة أيضا لمصر. وعلى العموم فقد توالت كما قلنا بعد ذلك هجمات شعوب البحر ولكن في هذه المرة على الجناح الشرقي للامبراطورية المصرية. وبالذات على الساحل الفينيقي الذي كان تحت سيادتها. فأتت في البداية على الامبراطورية

الحيثية نفسها فأنهتها وذلك سنة 1200 ق.م وأنهت السيادة المصرية في عموم منطقة الشام ابان الهجمة الثالثة والأخيرة عام 1190 ق.م.

هذه الهجمات هي التي وضعت حدا لسيطرة الامبراطوريات الكبرى من جهة ومن جهة ثانية هي التي حررت الى حد بعيد المدن الفينيقية واعطتها الدفع الرئيسي للانطلاق نحو الآفاق المتوسطية البعيدة المدى والتي سوف تعرف التطور والازدهار الذي عرفته خلال الألف الأولى ق.م. وهو ما حفظه لها التاريخ لانه هو الذي نقلها من مستوى المحلية الى مستوى العالمية.

وانه لمن المجدي جدا بالنسبة للمؤرخ المعاصر أن يتوقف قليلا عند مغزى ومعنى مثل هذه الأحداث التي شكلت تاريخ البشرية اللاحق، اذ لا شك أن هذا الاختلاط وذلك الانصهار الذي عرفته مجموع شعوب المتوسط منذ الأزمنة الغابرة وفي هذه المرحلة بالذات التي وعتها ذاكرة التاريخ البشري أقول أن هذه الأحداث إنما هي في الواقع تكشف النقاب عن احتمالية حدوث أحداث مماثلة لها في الماضي، أنها تدل على أنه يمكن أن يكون قد حدث هناك ما يشبهها وعلى أنه كانت هناك سابقات لها.

من المؤكد ان ثمة علاقات متوسطية سابقة بين هذه الشعوب هي التي جعلتها تتلاقى وتتفاهم بل تتحالف في أحلاف هجومية عسكرية على مصر وعلى بلاد الشام. وان الطبقات الأثرية لحضارات الشرق الأدنى القديم المتراكمة فوق بعضها البعض منذ أقدم العصور ما قبل التاريخية لتجعلنا نقف أحيانا حيارى مندهشين لشدة ما تبرز من أنماط حضارية غاية في التنوع الثقافي والحضاري وغاية في التباين والتمايز الجوهري والشكلي. ومن ثمة التباين والتمايز في الوحدات والنُسُق الاجتماعية والبشرية يصل الى حد التمايز السلالي الذي يبرز بوضوح من خلال التمايز في السمات والملامح الخلقية الباليونتولوجية. التي تؤكدها الدلالات البنيوية في الهياكل العظمية للأفراد والتي كثيرا ما تحفل بها المواقع الأثرية في تلك الأصقاع الشرق أوسطية. مما يجعلنا نتصور بأن هذه المنطقة من العالم كانت احدى المناطق الأولى التي شكلت البوتقة التي انصهرت فيها الشعوب والقوميات والثقافات المختلفة. التي تميزت بها شعوب المتوسط الشمالية والجنوبية على حد سواء وذلك منذ اقدم العصور في ليل ما قبل التاريخ الطويل[٥].

ولكل ذلك فان هذا الواقع التاريخي للمنطقة وشعوبها يجعل الكلام عن شعب أو عنصر قومي نقي سواء كان ذلك فينيقيا أو عموريا أو كنعانيا أو غير ذلك أمرا يكاد بالكاد أن يكون مستحيلا حتى في تلك العصور الباكرة من فجر تاريخ البشرية.

في ارتباك المؤرخين الأوائل:

لذلك يقابلنا منذ البداية نوع من الارتباك والضبابية في محاولات المؤرخين الأوائل استشفاف أصل الفينيقيين. ويقول هيرودوت (النص): «الفينيقيون ليسوا من أهل البلاد الأصليين، وقد نزحوا اليها من البحر الأرتيري.» ـ انتهى النص. ولكن هيرودوت لا يحدد من أي الضفتين في البحر الأريتري[٦] أي البحر الأحمر، هل هم من الضفة الافريقية أم من الضفة العربية؟

أما سترابون فهو يحاول بطريقة غير مباشرة بأن يقول لنا بأنهم من منطقة الخليج العربي، حيث يورد كلاما يفهم منه ذلك. فحواه أنه لما سئل سكان الخليج عن أصولهم أكدوا بأنهم يسمون أسماء مثل صيدا وصور وآراد، وان المعابد عندهم تشبه معابد الفينيقيين..

أما جوستان فهو عندما يحاول أن يعرفنا بأصل الفينيقيين يذكر بأنهم شعب نزح من بلاده الأصلية، دون أن يسمي هذه البلاد الأصلية. ويقول بأن سبب نزوحهم عن بلادهم هو الزلزال[٨] الذاي أفزعهم. ويضيف بأنهم أول ما حطّوا الرحال حطوها على ضفاف دجلة والفرات في بلاد أشور ثم أنهم في مرحلة لاحقة انتقلوا الى شواطئ المتوسط، حيث أقاموا مدينة صيدا.

ولعل القدر الذي أسهمت به مجمل هذه النصوص القديمة في التعتيم والتضبيب أكبر من القدر الذي أسهمت به في التنوير والتوضيح، وهي نصوص ما زالت تثير الكثير من الجدل بين المؤرخين[٩].

والجدير بالذكر أنه من خلال قراءة النصوص التاريخية القديمة اغريقية ولاتينية يتضح أنها قليلة الإفادة بالنسبة لمعرفة أصول الفينيقيين وكذلك بالنسبة لمعرفة مسار الانتشار الفينيقي على شطئان المتوسط. ويوصي معظم المؤرخين المحدثين بضرورة اتخاذ

الحيطة والتزام جانب الحذر لدى استعمالنا لهذه المصادر التاريخية التي خلفها لنا المؤرخون والجغرافيون وحتى الشعراء الاغريق والرومان. ذلك أن الاغريق والرومان كانوا قد دخلوا في منافسة تجارية كبرى ضد الفينيقيين، في شرقي المتوسط بالنسبة للاغريق وفي غربيه بالنسبة للرومان. ولقد تحولت المنافسة بين قرطاج وروما كما هو معلوم الى حرب دموية لم تنته الا بتدمير قرطاج[10].

بالإضافة الى الكتاب الكلاسيكيين[11] هناك مصدر هام في هذا الموضوع اعتمده الكثير من الباحثين الغربيين والمتمثل في الكتاب المقدس، غير أنه من المعلوم أن الكتاب المقدس وان كان يحتوي على العديد من النصوص التاريخية التي قد تفيد البحث في هذا الموضوع وخاصة تاريخ الفينيقيين في الساحل الفينيقي شرقي المتوسط وبالذات تلك المعلومات الغزيرة التي يحفل بها كتاب الملوك وحزقيال ، ومع ذلك فانه لا بد من توخي الحيطة والحذر في هذا الشأن. فاستعمال الكتاب المقدس كمصدر تاريخي لا يخلو من المآخذ والمغالطات، لأن هذا الكتاب يظهر تحيزه الكامل لبني اسرائيل على حساب شعوب الأرض قاطبة ويظهر مشاعر العداء ضد مدينة صور بالذات. ولا غرابة في ذلك حيث أن أحبار اليهود ، عندما أعادوا كتابة نصوص الكتاب المقدس من الذاكرة وهم في الأسر بعد السبي البابلي الذي كانوا عرضة له على يد نبوخذ نصر سنة 587 ق.م. أعادوا الكتابة بطريقة قصدوا من ورائها تكريس روح العداء والكراهية والحقد، فوضعوا ما وضعوا من نبؤات وافتراءات ضد مدينة صور بالذات لذلك فانه من الصعب الاعتماد عليه كمصدر تاريخي. هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المؤرخين الغربيين المحدثين أساؤوا استعمال الكتاب المقدس كمصدر تاريخي فبدلا من السعي وراء الكشف عن الحقائق التاريخية بالاستعانة بنصوص هذا الكتاب أصبحوا يبحثون عما يؤكد الروايات التي جاء بها الكتاب ولذا يمكن القول بأن دراساتهم اتجهت اتجاهات دينية أكثر منها تاريخية[12].

وأمام هذا الوضع العام للمصادر تعتبر التركة الأثرية الفينيقوبونيقية من أهم المصادر التاريخية لهذه المرحلة من تاريخ الحضارة في حوض المتوسط. حيث وجدت عدة نصب تذكارية لا يزال البعض منها قائما حتى اليوم وعلى هذه النصب والمعالم الجنائزية وجدت العديد من الكتابات المنقوشة والمحفورة، كما وجدت عدة تدوينات

على التوابيت الحجرية مثل غطاء تابوت الملك حيرام ملك صور وقد نقش عليه نص كتابي يتكون من سطرين.

ولقد حرص العلماء ورجال الآثار على جمع هذه التركة من النصوص الكتابية واستنساخها وحفظها وهي تقارب اليوم الـ 7000 نص مدون تخص مختلف مجالات وجوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها من خصائص الحياة، سواء على المستوى العام أو على المستوى الشخصي الخاص، وبالنسبة لمختلف مناطق وجهات العالم الفينيقوبونيقي.

ويهتم العديد من العلماء حاليا بقراءة هذه النصوص وفك رموزها، نذكر من بينهم على سبيل التخصص بلوخ وسزنيسر. غير أنه يجب القول بأن هذه الدراسات ما تزال في بدايتها أو كما يقول فنطر «ما زلنا في مرحلة فجر تاريخ الدراسات الفينيقوبونيقية»، وهذا صحيح طالما أننا لم نوظف كل الامكانيات المصدرية التي تحتوي عليها التركة الأثرية في جميع جوانبها[13].

ومن خلال هذا العرض الموجز للوضع المعرفي الراهن حول هذه النقطة الهامة التي اعتبرناها أساسية في البحث وهي من هم الفينيقيون أولا؟ حتى نستطيع أن نجزم أو ننفي فكرة التوسع الفينيقي والذي أصبح اليوم على يد المؤرخين الغربيين المعاصرين يسمى الامبريالية الفينيقية، وهو المصطلح الذي سوف نتعرض له في حينه[14].

من خلال ما تقدم اذن نميل الى الترجيح بأنه لم يكن هناك ثمة توسع استعماري أو غير استعماري فينيقي. وأن الهوية الفينيقية وخاصة في بعدها السياسي وكذلك الثقافي، وهذا هو المهم، تعتبر هوية غير محددة المعالم وفي هذا الصدد يقول ج. مازل الذي تتبع رحلة الفينيقيين على طول سواحل المتوسط بحثا ورداسة وتنقيبا وذلك في معرض تساؤله عن الفنون الفينيقية ما نصه: «إذا كان الفينيقيون قد انتجوا قلة قليلة من الأعمال الفنية الخالدة التي كان من الممكن أن تكون تعبيرا صريحا عن الوحدة القومية فاننا لا يجب أن نستغرب ذلك لانه لم يكن هناك بالمعنى الدقيق أمة فينيقية. لقد كانت هناك مدن مستقلة بذاتها بدرجات متفاوتة[15]».

بماذا يمكن أذن، وفي مثل هذا الوضع المعرفي، أن نصف وكيف نصنف ونحدد تاريخيا هذه الحركة وهذه الفعالية الفينيقية في الانتشار عبر شطئان المتوسط؟ من المرجح أننا ما زلنا نجهل الكثير عن كيفيات هذا الانتشار الفينيقي رذلك التسرب

الاستيطاني كيف تم وتحت أية دوافع حقيقية بالرغم من كثرة وجهات النظر في هذا الشأن، كما أننا لا نزال نجهل الكثير عن الفينيقيين أنفسهم.

ولكن يمكننا الركون من الناحية الموضوعية البحتة الى بعض الحقائق والمعطيات التاريخية بخصوص تواجد الفينيقيين على جزر وسواحل المتوسط وخاصة سواحلنا المغربية بدءا من الألف الأولى ق.م. هذا التواجد الفينيقي الذي يثير هو بحد ذاته اشكالية تاريخية جديرة بالدراسة والبحث وتسليط الأضواء. والاشكالية تتمثل في كيفية التواجد هل هو تواجد الفاتحين أم تواجد الخاضعين؟ التواجد في حد ذاته أمر مسلم بـه ولكن كيفيته هي التي تثير التساؤلات.

ونحن في المغرب العربي تدور في أذهاننا تساؤلات علمية في باب التاريخ وفي هذا الفصل من فصوله على وجه الدقة، تساؤلات وهموم لم يعتن أحد ممن سبقونا بمحاولة الإجابة عليها أو معالجتها. وهذا في نظري أمر طبيعي لان كل مجتمع أو حضارة لا يمكن أن يهتم بقضايا لا تعنيه مباشرة. وان كل معالجة لقضايا معينة لا بد وأن نعالجها من الجوانب التي تهمنا نحن أولا. لذلك فلا لوم على كل المدارس التي سبقتنا في محاولاتها لمعالجة هذا الموضوع من وجهة نظرها، فنحن لا نستطيع أن نكون الا نحن.

ونحن شغلتنا ولا زالت تشغلنا ظاهرة التواجد الفينيقي على شواطئنا، والسؤال الأول الذي يتبادر الى الذهن هو هل يعقل أن نكون نحن في بلادنا وعلى طول سواحلها وشواطئها مغيبين بالكامل الى أن يأتي هؤلاء البحارة التجار لكي يؤسسوا هذه المدن التي ننسبها اليوم اليهم دون أن يكون لنا نحن أي دور في العطاء الحضاري؟ وان كل دور لنا هو دور الاستقبال الحضاري وحتى ذلك الاستقبال أو هذه الاستقبالية أو الاستهلاكية محدودة ومفروضة علينا، هل يمكن أن تكون هذه حقائق تاريخية أم أنها مجرد تصورات تعبر عن أفكار كولونيالية تريد أن تؤصل فينا الروح الانعزالي والقصور الطبيعي عن التجاوب والعطاء الحضاري؟؟

إن هذه الانشغالات والهموم المطروحة اليوم على الساحة العلمية التاريخية ما تزال محاولات الإجابة عليها متعثرة الى حد بعيد. يقول المؤرخ االتونسي محمد فنطر في كتابه (يوغرطة) النص: «ومهما يكن من أمر فالمصادر القديمة يونانية كانت أو رومانية

لا تكفي لدراسة ماضي الأفارقة وحضارتهم في فجر التاريخ؟ فكيف كانوا قبل حلول الفينيقيين بينهم؟» انتهى النص. وذلك هو السؤال الحائر الذي لم يحاول مؤرخونا الإجابة عليه بعد[16].

إن هذا الوضع العلمي في تجاهل الحقائق المغربية ليس قديما وحسب في المصادر اليونانية والرومانية بل انه وضع لا يزال قائما حتى اليوم بل والى الغد.

ففي أعمال المؤتمر الدولي الثاني لدراسة ثقافات غربي المتوسط والذي عقد في مالطا في مطلع السبعينات أثيرت هذه النقطة بالذات من طرف مجمل الباحثين المهتمين والمختصين. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: بول البير فيفري، الذي قال في احدى مداخلاته ما معناه: يوجد هنا بالنسبة لتاريخ المنطقة، ويقصد غربي المتوسط، ثمة عائق بوني ـ ان صح التعبير ـ بعمل على اخفاء الحقائق التاريخية للأهالي أي أن انكباب المؤرخين والباحثين على التاريخ القرطاجي والفينيقي جعلهم لا يلتفتون الى تاريخ الشعوب المحلية ـ الأهالي. وانه هو (أي فيفري) يرجح أن تلك الموانئ التي تأسست في العهد الفينيقي انما هي في الواقع موانئ في أساس التجمعات السكانية للأهالي[17].

ولقد كانت على العموم اللغة العامة التي تكلم بها مجمل المشاركين في هذا المؤتمر الدولي لغة مماثلة لهذه ان لم نقل مطابقة تماما، دارت كلها حول القواعد البنيوية البربرية للمدن والموانئ والحضارة التي من المرجح أن يكون الوجود الفينيقي قد تأسس فوقها.

وهذا التوجه بالرغم من بريقه ولمعانه فهو لا يعدو أن يكون افتراضات وليس اثباتات علمية أو حتى ما يمكن أن نسميه فرضيات علمية. ولعل هذا التوجه الجديد في نهاية المطاف يحتاج الى أن يؤخذ بشيء من الحذر والحيطة حيث أنه ربما يحمل في طياته بعض الظلال والألوان الخاصة. هنا يجدر بنا التساؤل ما الذي حدث في المدرسة الكولونيالية؟ هل أخذتها الشفقة على تاريخنا فجأة؟ فبدأت ترى بأن التاريخ الفينيقي قد غيبه أم هي تريد أن تراعي المشاعر القومية البربرية فتنسب لها قواعد وبنيات حضارية سابقة للوجود الفينيقي؟ أم هي تتحدث عن حقائق تعرف اين توجد أسرارها؟ أم ان الأمر لا يحمل في طياته أي عنصر للتغيير أو التجديد، وانه متابعة للعزف على النغم القديم بتوزيع جديد كما يقول الموسيقيون؟!

المدرسة الغربية عموما توزعت الأدوار في الواقع منذ نشأتها بل لعلنا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك هي لم توزع الأدوار حسب المؤلفين والكتاب بل في الشخصية الواحدة للمؤلف الواحد، وليكن قزال ـ مثلا ـ او غوتييه أو كامبس أو حتى فيفري وغيرهم، نجد لديهم اختلاف الألوان والظلال. فعند القراءة المتمعنة لأعمالهم لا نجد حقا من هو ضدنا على طول الخط ومن هو معنا على طول الخط، هناك نوع من التراوح بين الضدية وبين المعية، وهذا ما يوحي للبعض بأن هناك ثمة موضوعية للعمل بل ذلك ما يعطيه مصداقيته وفاعليته وذلك أمر طبيعي لانه في التاريخ مثل ما هو الحال في السياسة ليس هناك أسود وأبيض فالألوان تتدرج بينهما.

ولكن بالرغم من كل ذلك فان المدرسة الغربية الفرنسية خصوصا وفي مرحلة تصاعد المد الاستعماري كانت أعجز من أن تخفض من حدة مشاعرها المعادية لتاريخنا القومي، فعزفت على نغمة الفراغ والقصور الطبيعي عن بناء الحضارة وعن إقامة السلطة المركزية. ودرّست وكرّست مفاهيم التمزق والتشرذم والتبعية للقوى الخارجية كما لو كانت قدرا بالنسبة لنا وحتى لو اقتضى الأمر اختراع هذه القوى الخارجية مثلما هي عليه الحال بالنسبة للفينيقيين وفرض وجودهم تاريخيا كقوة حضارية فاعلة انتشرت في فراغ وخواء حضاري.

وفي مرحلة ما بعد الاستقلالات الوطنية للمغاربة أبقينا نحن المغاربة على نفس المفاهيم الكولونيالية في التاريخ ، ومن هنا فنحن في الواقع امتداد لهذه المدرسة، ولكن عدلنا قليلا في بعض التفاصيل عندما اعتبرنا التوسع الفينيقي توسعا غير استعماري لا امبريالي. ما دام قد جاء وقام على فراغ وما دام قد جاء وقام بالتراضي وأخيرا ما دام قد جاء من الشرق مع كل ما يربطنا بالشرق قديما وحديثا من أواصر الأخوة والقرابة[18].

أمام هذا الوضع الذي لم يكن في الحسبان بالنسبة للمدرسة الغربية في التاريخ تغير التوزيع الموسيقي للنغم القديم لكن المعزوفة ظلت كما هي. فإذا كان التوسع الفينيقي بالنسبة اليها قديما قد جاء على فراغ فحمل في مساره اشعاعا حضاريا ورسالة انسانية حيث أنه قام باعباء تمديننا وإقامة المدن والموانئ في عوالم كانت تجهل المدن والموانئ، وأرسى قواعد التجارة ونشر معها عبر موانئه التي أسسها أنوار المعرفة والثقافة. أو ليس الفينيقيون هم الذين نشروا الحروف الهجائية الأولى في العالم؟

كانت هذه بالدقة ادعاءات الاستعمار الفرنسي عندما جاء الى مغاربنا. لقد كان يصور للعالم ولنفسه ولنا نحن بأنه يحمل رسالة التمدين والتحضير أو ما سمي في ذلك الوقت بأعباء الرجل الأبيض. ولكن لما صدم الاستعمار بحقيقته وفجع في شعاراته وادعاءاته عندما تيقن بأنه قام في طريقه تلك بتدمير أجمل المعالم وأرقى القيم الحضارية، وانه لم يأت على فراغ مثلما كان يتصور، وقف وجها لوجه أمام جريمته وأمام الادانة الانسانية.

من داخل هذه الجدلية الاستعمارية الحديثة تهتدي المدرسة الغربية للتاريخ أو المدرسة الكولونيالية كما اسميتها، الى المنطق الجديد: الفينيقيون أيضا لكي يكونوا توسعيين وامبرياليين لا بد أن يكونوا قد جاؤوا على بنى وقواعد حضارية وثقافية وسياسية ، لا بد أن يكونوا قد جاؤوا على حساب هوية قائمة وقومية كائنة ومن ثم يتحملون قدر الادانة، ونتحمل نحن وصمة عار الاستعمار، هم يريدون أن يثبتوا علينا تهمة القصور والعجز الطبيعي، فيقولون لنا كلا لم يأت الفينيقيون على فراغ لم يأتوا كممدنين ، أنما جاؤوا على حساب مقومات وجودكم وأنكم استكنتم لهم بالأمس كما كنتم معنا البارحة.

وقبل أن أختم هذه المداخلة التي لا تختم الموضوع، أريد فقط أن أنبه الى أننا هنا لا نريد ولا نهدف بأي حال من الأحوال الى محاكمة المدرسة الغربية أو الكولونيالية في التاريخ أو مهاجمتها والتعدي عليها، فنحن ـ وأنا أعتقد ـ أننا جميعا أنا وزملائي المشاركون في هذا الملتقى العلمي لا نحمل أية مشاعر عداء أو كراهية أو حقد على هذه المدرسة مهما كانت اتجاهاتها بل ومهما كانت اتجاهاتها متطرفة ضدنا، فلكل حقه المقدس في ابداء رأيه كما لنا حقنا المقدس في ابداء آرائنا حول تاريخنا وحول تاريخهم أيضا. ولكننا نحن في هذا العمل المتواضع كان همنا وشغلنا الشاغل منذ البداية هو تصحيح مسار التاريخ وتصحيح مناهجه والعمل على تصفيتها وتنقيتها من شوائب الفكر الاستعماري.

المؤرخ الغربي ليس وحده المسؤول كل المسؤولية عن ما يكتب وما يبث من أفكار استعمارية في ما يكتب فهو يكتب بلغة عصره ومشاعر عصره وتطلعات عصره الكولونيالي بالكامل. وهو مسؤول مسؤولية محدودة وليست مطلقة، مسؤول عن

تغييب ذاته وتغييب وعيه بالكامل، ونحن أيضا مسؤولون معه بقدر مسؤوليته، مسؤولون عن ضعفنا وعن خورنا وعن عجزنا وعن سلبيتنا، مسؤولون عن تغيبنا.

وكما نرى فالمسؤولية عن هذا الوضع اللامتكافئ هو مسؤوليتنا جميعا، ومن هذا المنطلق الموضوعي كانت بدايتنا والتي نأمل أن تستمر موضوعية ، تتطلع الى آفاق انسانية جديدة ورحبة تتسع لجميع الأمم وجميع الشعوب دون تحيز وبدون تعصب وبدون أحقاد.

الهوامش

(1) الفينيقيون مصطلح اصطلاحي تعارف عليه المؤرخون القدامى والمحدثين. وان هذه الجماعات البشرية (الفينيقية) لم تكن تطلق على نفسها هذا الاسم وانما كانت تعرف بأسماء مدنها: جبيل. صور. صيدا. ارواد. أوغاريت...الخ.

(2) انظر في ذلك قاموس الابتيمولوجي. مادة (Expansion)

Nouveau Dictionnaire etymologique et historique A. Dauzat, J. Dubois, H. Mitterand, 3e édit., Larousse Paris, 1964.

(3) ان موقف المدن الفينيقية لم يكن مستقلا ازاء بعضها البعض بل كان يتميز بالعداء. ففي أثناء الصراع الذي دارت رحاه ما بين المصريين والحيثيين من أجل السيادة وبسط النفوذ على بلاد الشام. كانت المدن تقف مواقف متميزة الواحدة عن الأخرى، بل متواجهة. فمدينة جبيل وقفت مع المصريين ضد الحيثيين بينما وقفت المدن الأخرى مع الحيثيين وكذلك كان الحال مع الآشوريين ومع المقدونيين حيث ان صور مثلا قاومت جيش الاسكندر حتى آخر قطرة من دم آخر رجل منها. أما مدينة صيدا فقد فتحت أبوابها على مصراعيها مرحبة بالفاتح الكبير الاسكندر المقدوني، وأكثر من ذلك قدمت له أسطولها الحربي من سلاح ومراكب ورجال لمهاجمة صور وتدميرها، ثم ان مدينة صيدا نفسها هي التي قادت مقاومة عنيفة فيما بعد ضد الغزو الفارسي وظلت تقاوم حتى آخر قطرة دم من آخر رجل فيها. بينما فضلت صور السلام أو الاستسلام للفرس. لمزيد من التفاصيل أنظر:

Mazel, J.: Avec les phiniciens, Robert Laffout, Paris 1968, p. 66.

أنظر الفصل حول فينيقية في كتاب:

Histoire de l'antiquité sous la direction de Diakov et Kovalev, édt. de progres Mouscou, pp. 190-197.

وكذلك كتاب: Justin, Trogue pompée, T.II Libre XVIII-III. ص 197. L'antiquité وتاريخ الحضارات العام. جـ 1: الشرق واليونان القديمة. تأليف أندريه ايمار غويدات. بيروت ـ باريس ط. 1981/2.

(4) محمد الطاهر العدواني، الجزائر في التاريخ، جـ 1: نشأة الحضارة، ص

(5) نقيشة رمسيس الثاني. وهي عبارة عن لوحة ثبتت في جدار معبد ابيدوس وتضمنت قائمة بأسماء الفرق العسكرية، منهم الليبو والشلكش والشرحن وغيرهم.

(6) محمد الطاهر العدواني أنظر في هذا الخصوص الفصل الخاص بالباليونتولوجيا البشرية في كتاب الجزائر في التاريخ، جـ 1 ـ سبق ذكره.

(7) الزلزال المعروف ربما كان زلزال جزيرة كريت الذي حدث في هذه الحدود الزمنية، غير ان كونهم حطوا الرحال بدجلة والفرات يعني أنهم جاؤوا من الجنوب أي بلاد اليمن.

(8) هيرودوت، سترابون، جوستان، ماسبيرو.

(9) مصادفات غريبة تجري في عروق التاريخ ان ما حدث بالأمس في أوج عصور ازدهار الحضارة في الشرق القديم أيام قدماء المصريين ودول بلاد الرافدين وبلاد الشام والساحل الفينيقي القديم، يكاد يكون بالكاد هو ما أعاده التاريخ مرة أخرى في دورة غريبة هي مطلع الألف الثانية بعد الميلاد، إعادة نفس السيناريو باختلافات العصور لما حدث في نهاية الألف الثانية ق.م. أي من 1250 ق.م. فما دون ومن ألف م فما فوق حملات شعوب البحر فيما ق.م. وحملات صليبية فيما بعد الميلاد، ونتائجها تكاد تكون متشابهة بغض النظر عن التدمير والتقتيل والخراب التي تخلفه والحروب، الا أن التلاقح الحضاري والثقافي ونقل الحضارة والثقافة والرقي من مناطق الشرق الأدنى القديم الى آفاق جغرافية وبشرية أخرى في المرة الأولى بالاتجاه لجزر البحر المتوسط وسواحله وشطآنه الغربية والشمالية، وفي المرة الثانية باتجاه عمق القارة الأوروبية ومنها الى العالم الجديد. أنظر بيبلوس مازل ص 43.

(10) يقول بلوتارك في معرض حديثه عن الفينيقيين: «انهم شعب تملأه روح التسلط وهو بكل تأكيد خنوع أمام المنتصرين جبار أمام المقهورين. وضيع في حالة الخوف.» لا شك ان كلاما مثل هذا لا يمكن أن نعتد به ولا يمكن أن يعتبر مصدرا تاريخيا نزيها أو موضوعيا. أنظر ج. مازل.

(11) أنظر أعمال الملتقى الدولي الثاني: ثقافات غربي المتوسط، تدخل كل من ه. زفراني، موسكاتي، سزنير، ص 16.

Actes du Deuxième congré International d'études des cultures de la Méditerrannéen Occidentale, T. II, publié par M. Galley, SNED., Alger 1978.

(12) لقد قامت الكتابات الحديثو والمعاصرة على الدراسات التاريخية، واستعملت مناهج النقد والمقارنة والمقابلة والمعارضة من جهة، كما استعملت مجمل التركة الأثرية بما فيها من شواهد وقرائن ونصوص وذلك منذ أوائل القرن العشرين وفي هذا الصدد نكتفي بالإشارة الى فلندرز بتري الذي كان من أوائل الذين قاموا بالحفريات الأثرية 1905. واوليرابت وجيمس هنري برستد والأمير موريس شهاب ودونالد هاردن وموريس. دونالد وكلود شيفر وجيلبار شارل بيكار والمؤرخ التونسي محمد فنطر. ومن الجزائريين محمد الصغير غانم. دون أن ننسى بطبيعة الحال سباتينو موسكاتي. الذي يعتبر مرجعا في تاريخ هذه المرحلة الهامة من تاريخ المتوسط.

(13) أعمال المؤتمر الدولي (2) ـ سبق ذكره. تدخل لوفاك ص 19.

(14) نص مازل.

(15) من الأمور المستغربة في الدراسات الفينيقية هو ان معظم الدارسين الذين اختصوا في هذا الموضوع يبدون اعجابا شديدا بالتجارة والتجار الفينيقيين الذين جابوا معظم أنحاء البلاد في العالم القديم، وخاصة غرب المتوسط ونظروا لهم على أنهم الرواد والمعمرين الأوائل الذين أسسوا المدن والموانئ على شطآن المتوسط وشطآن المحيط

الأطلسي، وليسوا الرواد الأوائل الحقيقيين الذين يبدو لمتتبع خطوات الفينيقيين التوسعية خلال الثلث الأخير من الألف الثانية والألف الأولى ق.م. بأنهم تتبعوا بشيء من الدقة خطوات شعوب متوسطية سبقتهم في الريادة لهذه المناطق والتي لا نعلم عنها الكثير، هذه الشعوب تركت بصماتها ورموزها الدينية والدنيوية أيضا ونقصد بها المنهير والدولمن والتملوين وغيرها من الشواهد الأثرية التي لا تزال قائمة حتى اليوم على طول شطآن المتوسط وشطآن الأطلسي الأوروبية والأفريقية من السنيغال جنوبا وحتى الجزر البريطانية شمالا (مازل ص 95).

(16) فنطر، يوغرطة. أنظر مداخلة مولود معمري، المتوسط، ص 18.

(17) بول البير فيفريي، مداخلته، ص 17. أنظر أيضا مداخلة بيير لوفاك، ص 19.

قضيّة السيادة النوميدية من خلال المصادر القديمة

محمد البشير شنيتي

يحدث أحيانا أن تتحول كتابات بسيطة غير موضوعية مفعمة بالذاتية والتحيز في زمانها الى مستندات وحيدة في موضوع تاريخي حساس، ان سلمت من التلف وبقيت وحيدة في ميدان المعرفة التاريخية. وهذا شأن كتابات بعض من وصفوا بالمؤرخين من أوائل الكتاب الرومان أمثال صلوستيوس وكذا حال بعض كتابات الرواد الأوائل من الأوروبيين في شمال افريقيا، فهي رغم الاتفاق على ضعفها وتحيزها أحيانا، وعدم تخصصها، فأنها أصبحت مستندات فيما بعد. وهنا يكمن وجه الخطورة ويبرز احتمال التزييف والبعد عن الحقائق التاريخية والتحكم في توجيه اهتمام القارئ وتصوره للأحداث وبالتالي تعتيم الرؤيا التاريخية لديه. وهي أمور تدعونا الى أعمال الفكر والتأمل عسى أن نجد سبيلا لرفع الزيف وتوضيح المسلك.

ومما يثير الانتباه بخصوص مملكة نوميديا أن كل ما نعرفه عن هذه الدولة الجزائرية القديمة، مصدره كتابات كلاسيكية يونانية لاتينية، تتركز عند بوليبيوس وأبيانوس اليونانيين، وصلوستيوس وليفيوس الرومانيين. وأن كثيرا من هذه المعارف مختلف فيما بين اليونانيين والرومان، فضلا عن اتصاف الاخباريين اليونان ازاءها بالحياد النسبي والاعتدال في الحكم على قضايا تاريخية هامة فيها، بينما يبرز انحياز الكتاب الرومان وتطرف آرائهم في نفس القضايا.